الخاتمـــة

دام حكم مكسيموس ثلاث سنوات كلها اضطراب وقتل أثناء تمرد عسكري قام ضده، فأصابه المصير نفسه الذي أحدثه هو بالاسكندر. تكررت هذه القصة مراراً وتكراراً في السنوات التالية، فكان الإمبراطور يتلو الإمبراطور في تتابع سريع. ومعظمهم كان يفرضه الجنود على الحكم كما أن معظمهم كان يقتلهم الجنود أيضاً، وقلما دام حكم أحدهم أكثر من خمس سنوات. وكثير منهم دام حكمهم بضعة أشهر وفي بعض المناسبات حدث أن وجد أكثر من إمبراطور في الوقت نفسه، بينما كان المدَّعون المتنافسون يحاربون بعضهم بعضاً طمعاً في الرداء الأرجواني. انتصرت الفوضى التي خلص سبتموس سيفيروس الإمبراطورية من أخطارها، وكانت سلامة الإمبراطورية تعتمد على الجيش الذي كان يحمي الحدود وهذا ما أوصى سبتموس سيفيروس به أبناءه وهو على فراش الموت. ولكن عندما خلت الإمبراطورية من رجل كفء أو من سحر المحافظة على الأسرة، تحول الكلاب الذين يحرسون البيت إلى قطيع من الذئاب المفترسة.

لم تكن المنازعات الداخلية هي التهديد الوحيد بالمتاعب بل كان خطر البرابرة الذي جعل الاسكندر وأمه يسارعان لدرئه عن الإمبراطورية، ذلك الخطر نما وازداد بعد موتهما حتى تعرض قلب الإمبراطورية للغزو وليس أطرافها فحسب، هرع القوط من وراء الدانوب إلى تراكيه وضغطوا على منطقة سواحل بحر إيجه ينهبون ويسلبون الولايات الغنية في آسيا الصغرى. وأما الجرمان فلم يكتفوا بتلك الغزوات في ضفاف الراين الغربية، بل تغلغلوا عبر ممر برينر Brenner إلى إيطاليا. وأما في الشرق فقد جدد ملوك الفرس وخلفاء أردشير إدعاءاتهم التي لم تعد الإمبراطورية المقسمة قادرة على مقاومتها، وهبطت هيبة الإمبراطورية إلى الحضيض عندما ألقى الفرس القبض على أحد الأباطرة الرومان وهو فاليريان Valerian وأسروه وساقوه إلى بلادهم وجعلوه يخدم كعبد من العبيد وبعد موته حشوا جلده بالقش وعلقوه في أحد معابدهم.

دام عهد الفوضى خمسين عاماً، ولكن في عام 284 ارتقى ديوكلايسيان Diocletian عرش الإمبراطورية وكان يملك الوسائل والمقدرة على فرض سلطته وإعادة بناء الإمبراطورية وأكمل أعماله قسطنطين الكبير، فظلت الإمبراطورية الرومانية صامدة قرنين من الزمان في الغرب واثني عشر قرناً في الشرق. كانت الإمبراطورية الجديدة تختلف عن القديمة التي نشأت على أنقاضها، فقد ورثت الدولة التي أسسها أغسطس وظلت باقية حتى موت الاسكندر سيفيروس، لم تبق بنية المجتمع الروماني كما كانت حيث كان فيه كل إنسان (ما عدا العبيد الذين بدؤوا يتمتعون ببعض الحقوق في نهاية تلك الحقبة) يتمتع بالحرية وضمن حدود طبقته ومدخوله ليعيش كما يختار. أما في الإمبراطورية الجديدة فقد توقفت هذه الحرية وأُبطلت فلم يعد لها وجود. ولم يعد الإمبراطور يتكلف حتى بالتظاهر بأنه قاض مسؤول أمام الشعب، بل أصبح حاكماً مطلقاً على رأس حكومة ديكتاتورية، أصبحت حياة كل شخص فيها ووظيفته وعمله خاضعة للتوجيه الرسمي.

إن عام 235م هو العام الذي قتلت فيه آخر الأميرات السوريات، وهو عام له أهمية بين الفترات الحاسمة في التاريخ فقد كان نهاية الإمبراطورية الرومانية ونهاية تلك المنجزات السياسية التي قدمت السلم والنظام وكثيراً من الحرية إلى الأكثرية من سكان منطقة تعتبر هي العالم المتحضر بأسره. وفي أوائل ذلك القرن احتج الشاعر اللاتيني جوفينال Juvenel على تدفق الأجناس البشرية الشرقية ومعها عاداتها وتقاليدها وقد استعمل هذا الشاعر عبارة طالما اقتبسها الأدباء وهي: «لقد فاض نهر العاصي وغمر نهر التيبر» ففي أعالي نهر العاصي تقع مدينة حمص ومعبدها الشهير معبد الإله ايلاجابال Elagabal وإن روما معذورة إذا حزنت وندبت حظها عندما انقطع فيضان نهر العاصي وانعدم اتصاله بنهر التيبر.